ما عبر المغارة

ماذا رأيتَ في المغارة ؟
هل قَبس القلب رموزَ الموت والحياة ؟
هل واصلت دماؤه تلاحم الصخور والنّبات ؟
هل أينعت بذهني الشرارة ؟

لقد عرفتُ روعةَ الخضوع ،
ومزّقت غضارة الخدّين في وجهي الدموع .
عرفتُ لسعة الجليد تنخر العظام .
رأيت ألف مارد يضحك في قرارة الظلام ،
يمسكني كبيرهم من شَعريَ الطويل ،
يطوّح الذراع بي حتى يغيبَ عالمُ الشّرر
يقدح من عيونهم ، ويختفي الصهيل

وقد عرفت الجوع
عرفت كيف تيأس الأحشاء ،
كيف تزوم في العيون حزمة الأضواء ،
ويذبلُ الجلد وتضعف الأعضاء
وصرت آكل الأعشابَ والعظايا ،
وما تُخلّف الضباعُ من بقايا
فهل وجدت في المغارة
ما كنت قد فقدت من طهارة ؟
نعم ، أنا أحسّ بالصفاء ،
احسّ بالجمالِ في العراء ،
احسّ انني هنا حرّ كآدم بلا حوّاء ،
حرّ كقابيل بلا هابيل :
فهل ستَمسَحُ الخطايا
عني وترجع البكارة ؟

أم انها اشتعالُ عودةِ الثقاب
تضيء مرة ؟ أو ومضة الشّهاب
يسقط من عليائه ولا يعود للسماء ؟

حرّ ؟ نعم ، حرية السقوط ،
حرية الاذعان والقنوط ،
حرية العمى عن الشّجرة المحرّمة ،
حرية بلا اختيار
بين الدّمارِ والدّمار .
ماذا رأيت في المغارة ؟
اقبَسا من الاله في السماء ؟
هل ذُبت في بحيرة السّناء ؟
وهل صعدت للذرى بعد الخشوع ؟
وهل عرفت روعة الخضوع ؟
أكان ما سفحت من دموع
يغسلني ، يُطهّرُ الفؤاد ؟
أم انها دموع كبرياء
لا يُقبَل الوضوءُ في املاحها ولا العماد ؟

ومن أنا لأقصدَ المغارة ،
وأهجر الرفاق ، والكفاح ، والحضارة ،
لأضع العالم في اطروحة بغيضة
أكونُ فيها نصفه ، نقيضه ؟
مُحمّد يهجر عالم الاصنام ؟
مُحمّد يُرسله الاله بالاسلام ؟
وهل مغارتي حِراء ؟
ترى أنا انتظرِ الاشارة
كي أبدأ الرسالة ؟
ماذا لديّ كي اقول
(برغم ما أشعر من ضحالة)
مما سيَسحرُ العقول ؟
لا ، لم يَعُد يُرسلُ انبياء .
والوحيُ لا يأتي سوى للأدعياء .
فهل أظلّ في المغارة
التذّ بالاحساس بالمرارة ،
بِتَرف التّفرّد الصوفيّ والصّفاء ،
بِتَرف الجمال في العراء ،
بِتَرفِ التّضوّر والدّموع ؟

يا اخوتي ، يا اخوتي ، هي الدماء
تُسفَح مرة فتورق الصّحراء .

محمد عصفور
جامعة اندیانا